Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5), Issue (12) : 30 Sep 2021
P: 98 - 106
ISSN: 2522- 3380
مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5)، العدد (12) : 30 سبتمبر 2021م
ص: 98 - 106

Historical stories in children's literature in Iraq
(narrative production in the eighties as an example)

Sarah Mazin Qahtan Muhammad
College of Education for Humanities || University of Anbar || Iraq

Abstract: This study aimed to highlight the historical story directed at child in Iraq during 1980s, a decade that witnessed a remarkable prosperity and development of children's literature. The study also focused on the role of Children's Culture House, the official sponsor of child's culture in Iraq, in presenting and enriching this kind of story. Moreover, the study explained the circumstances of that historical phase and its implications on the child's story in general and the historical story in particular. The study also covered the methods and means of writers in dealing with facts and events of history and presenting them to the child in line with the requirements of children's literature. The study then supported the theory with an artistic analysis of a historical story published at that point.

Keywords: Children's Literature, Child Culture, Historical Story, Children's Culture House.

القصص التاريخي في أدب الأطفال في العراق
(النتاج القصصي في الثمانينيات –أنموذجاً-)

سارة مازن قحطان محمد
كلية التربية للعلوم الإنسانية || جامعة الأنبار || العراق

المستخلص: تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على القصة التاريخية الموجهة للطفل في العراق خلال عقد زمني هو من أكثر مراحل أدب الأطفال في العراق ازدهارا وتطوراً، ألا وهو العقد الثمانيني من القرن العشرين. وركزت على دور دار ثقافة الأطفال –على اعتبار أنها الحاضن الرسمي لثقافة الطفل في العراق- في تقديم هذا النوع القصصي وإثرائه، ووضحت ظروف تلك المرحلة التاريخية وما تركته من آثار على قصة الطفل –عموماً- والقصة التاريخية –خاصة-، وتحدثت أيضاً عن أساليب الكتاب ووسائلهم في تناول وقائع التاريخ وأحداثه وتقديمها للطفل بما يتوافق مع اشتراطات أدب الأطفال. ثم دُعّمت الدراسة النظرية بتحليل فني لقصة تاريخية منشورة في تلك المرحلة.

الكلمات المفتاحية: أدب أطفال، ثقافة الطفل، قصة تاريخية، دار ثقافة الأطفال.

المقدمة.

تولي الدول المتقدمة في عالمنا المعاصر أهمية كبيرة لأدبيات الأطفال لما لها من أثرٍ كبيرٍ في تربية الجيل الناشئ وتثقيفه وإمداده بما يحتاج من معارفٍ يواجه بها الحياة.

والقصة باعتبارها الفن الأدبي الأقرب إلى نفس الطفل، حظيت بمزيد من الاهتمام والعناية فتنوعت مضامينها وأساليب إخراجها بشكل كبير، وقدم الكتاب –عن طريقها- مختلف الموضوعات بقصد تسلية الأطفال وإمتاعهم أو تهذيبهم وتعليمهم، لتصب جميعاً في غايةِ بناءِ إنسان ذي شخصية سوية ومتزنة.

والقصة التاريخية بوصفها إحدى الأنواع القصصية التي تقدم للطفل مضمونا قد يصح عده من المضامين الصعبة والمعقدة، والمهمة في ذات الوقت، فإن طبيعتها هذه تثير عدداً من التساؤلات عن كيفية تقديم هذا النوع القصصي بطريقة تسمح للطفل بفهمه أولا، والدخول إلى مجال خبراته ثانيا، لتعزيز ربطه بتراث أمته، وتنمية إحساسه بكونه جزءً من تاريخها الممتد عبر السنين.

مشكلة البحث

تتبلور مشكلة البحث عن عدد من التساؤلات التي تثير التفكير حول طبيعة تقديم المضمون التاريخي في مرحلة حساسة من تاريخ العراق، وهل انعكست صعوبة هذه المرحلة وحساسيتها بشكل سلبي ام إيجابي على النتاج القصصي الموجه للطفل؟، ويمكننا طرح عدد من التساؤلات التي يمثل كل منها جزءً من مشكلة البحث، وهي:

1- ما الظروف التي أحاطت بمرحلة الثمانينيات وتركت أثرها على النتاج القصصي المقدم للطفل؟
2- ما دور مؤسسة دار ثقافة الأطفال في إثراء النتاج القصصي والقصة التاريخية –خاصة؟
3- كيف قدم الكتاب التاريخ للطفل؟
4- ما دور الصحافة في مجال القصة التاريخية؟
5- هل وظف الكتاب الخيال في سرد أحداث التاريخ أم اكتفوا بتقديمه كأحداث ووقائع؟

وستحاول هذه الدراسة تقديم إجابات لهذه التساؤلات مستعينة بالمنهج التاريخي وتحليل المضمون فنياً، لاستعراض المنجز القصصي في مجال القصة التاريخية في العراق، والقراءة النقدية لنصوص تلك المرحلة.

الدراسات السابقة.

لم يحظ مجال أدب الأطفال في العراق بدراسات كثيرة تسهم في إبرازه من كافة جوانبه، ولعل ذلك يعود إلى عدة أسباب، منها ما يتمتع به هذا المجال من خصوصية كبيرة، لذا فإننا لن نجد دراسات مختصة بالقصة التاريخية، لكننا سنجد نبذاً متفرقةً هنا وهناك ضمن دراسات أخرى، ومن أهم الدراسات التي تناولت القصة التاريخية الموجهة للطفل في العقد الثمانيني: دراسة الدكتورة طاهرة داخل (قصة الطفل في العراق.. النشأة والتطور) إذ قدمت هذا النوع القصصي بشيء من التفصيل، وحددت له أنواعا، وأطلعت القارئ في ذات الوقت على بعض النتاجات القصصية في ذلك العقد.

أما دراسات الدكتور هادي نعمان الهيتي –على الرغم من اهميتها في مجال أدب الأطفال في العراق- فإنها لم تدرس هذا النوع بشكل مفصل بل اكتفت بتقديم بعض النبذ والمعلومات عنها.

و للتداخل الحاصل بين القصة الدينية والتاريخية –أحيانا-، فإننا نستطيع إضافة عنوان أخر كدراسة سابقة، وهو (القصص الديني في أدب الأطفال في العراق 1922- 2010) للباحث عمار علي أحمد.

بعد أن قطع أدب الأطفال في العراق –منذ نشأته بشكل رسمي في 1969م- شوطاً في مسيرة تطوره يربو على العقد الزمني أو أقل من ذلك بقليل، شهد في أواخر العقد السبعيني- نتيجة لعدة أحداث على المستويين المحلي والعالمي- تطوراً كبيراً بخطوات واسعة ومتسارعة لم يسبق لها مثيل، فعلى المستوى العالمي زاد الاهتمام بكافة المجالات التي تُعنى بالطفل والطفولة وذلك بعد إعلان منظمة الأمم المتحدة (يونسكو) اعتبار العام 1979م، عاماً دولياً للطفل، سعت من خلاله الى لفت الانتباه الى مشاكل الأطفال حول العالم، منها مشكلة سوء التغذية وعدم الحصول على التعليم، وأدى هذا الجهد لاحقاً الى توقيع اتفاقية حقوق الطفل في عام 1989م.

أما على المستوى المحلي فإن تأسيس دار ثقافة الأطفال أواخر العام 1977م، يعدُّ حدثاً ذا اهمية كبيرة بوصفه " أول مبادرة في القطر لتأسيس مركز ثقافي تتعدد فيه خطوط العمل الثقافي الموجه للأطفال" (طاهر، 2004م،90)، ولعل أهم إنجازات دار ثقافة الأطفال علاوة على تبنيها إصدار المطبوعين "مجلتي" و"المزمار"، هو إصدارها لسلاسل كتب الأطفال منذ مطلع العام 1979م، بوصفها عملية جادة ترمي إلى إثراء مكتبة الطفل العربي، في الجوانب المعرفية المختلفة، ومن هذه السلاسل: السلسلة التاريخية، السلسلة المترجمة، السلسلة القصصية، السلسلة العلمية، سلسلة البراعم، السلسة الشعرية، الخ.

وقد روعي في سلاسل "مكتبة الطفل" إخراجها بما يتناسب ومدارك الأطفال في مراحلهم العمرية المختلفة، ونجد أن الفن القصصي احتل مساحة واسعة من هذه السلاسل، ولقي الإخراج الفني للكتب وطباعتها عناية فائقة، وهذا يشير الى الوعي الكامل بأهميته في نقل المضمون بطريقة مؤثرة وجذابة.

وتعد الدكتورة طاهرة داخل العام 1979م " عاماً ثقافياً وأدبياً حقيقياً للطفل العراقي كما هو عام دولي للطفل العالمي وذلك لما قدم للطفل العراقي من مطبوعات ثقافية مدروسة ونشاطات أدبية وفنية على مختلف الأنواع وفي جميع مجالات حياته" (طاهر،2004م،90)، فكان هذا العام عتبة لحقبة جديدة في تاريخ أدب الأطفال ومسيرة تطوره، ف" الثمار التي أخذ الكتاب يتناولونها ويبرزونها في الثمانينيات كان قد تم الاهتمام بها ورعايتها في أواخر السبعينيات" (طاهر، 2004م،97).

وعلى الرغم من الدور الكبير والمهم الذي أدته دار ثقافة الأطفال في دفع عجلة التطور، فقد أسهمت عدة عوامل أخرى في تقدم أدب الأطفال في تلك الحقبة، ونقصد بها الحقبة الممتدة من أواخر السبعينيات حتى منتصف التسعينيات.

ومن اهم هذه العوامل حسب ما يرى الدكتور نجم عبد الله كاظم: الدعم الرسمي المتمثل في الجانب الثقافي لسياسات وزارة الثقافة والإعلام وما وفرته من ظروف غير عادية للكتابة والنشر، والإسهامات الفردية المتمثلة بجهود الأفراد –التي لا يمكن فصل بعضها عن الجهود الرسمية- ودخول دور النشر والطباعة في هذا المجال بشكل واسع مثل دار القادسية للطباعة ومطبعة السعدون والدار العربية، وكذلك ازدهار حركتي الترجمة والنقد، فنتج عن الاولى ترجمة عدد من روائع أدب الأطفال في العالم، ونتج عن الثانية صدور عشرات الدراسات الجادة لعشرات الدارسين أهمهم هادي نعمان الهيتي الذي يعد الرائد الحقيقي لدراسة أدب الأطفال في العراق. ومن العوامل الأخرى التي أسهمت في ذلك التطور: ظهور مجموعة كبيرة من كتّاب قصص الأطفال والفتيان، وبعضهم قصاصون وروائيون في الأصل، جذبهم الازدهار الحاصل في هذا المجال وحبهم للكتابة للأطفال، من أمثال: عبد الرزاق المطلبي وعبد الستار ناصر وميسلون هادي، وغيرهم (كاظم، 2014م، ص127- 131).

ويجب أن لا نغفل- ونحن نتحدث عن العوامل والظروف التي أحاطت بأدب الأطفال في تلك الحقبة- ظرفاً سياسياً مهماً وهو الحرب العراقية- الإيرانية التي امتدت طوال هذا العقد تقريباً، وشملت بتأثيرها مجالات الحياة كافة، منها الجانب الثقافي، ومجال ثقافة الأطفال وأدبهم تبعاً لذلك، فأفرزت هذه المرحلة كماً كبيراً من القصص والمطبوعات التي تحكي قصص المعارك والبطولات والشهادة، وذلك بما يتناسب مع سياسة الدولة وتوجهاتها وبرامجها في تحشيد جميع فئات الشعب وبضمنهم الأطفال في خضم المعارك والحروب. فكان من أشكال هذا التحشيد محاولة ربط الطفل بأحداث الحرب ربطاً محكماً ومنظماً من خلال المطبوعات والمنشورات الموجهة له، ومن خلال صحافته وكذلك من خلال النشاطات الميدانية المكثفة (طاهر، 2004م، 287).

ولن نحاول الآن فتح باب نقاش قد لا يغلق، حول إمكانية تعريض الأطفال للحقائق الأليمة وتصويرها لهم، كحقيقة الحرب والقتل والموت، وعن أثر ذلك فيهم- ولعلنا نكتفي بكلام موجز لاحقاً-، إنما قَصَدنا التعريف بالظروف التي أحاطت القصة في تلك المرحلة ولا سيما القصة التاريخية، وكيف أثرت في موضوعاتها وصياغتها.

إن أهم مصادر القصة التاريخية في تلك الحقبة الغنية بالإبداعات القصصية، هي السلسلة التاريخية الصادرة عن دار ثقافة الأطفال ضمن مشروع "مكتبة الطفل"، وقد جاء تعريفها في دليل ثقافة الأطفال بأنها: "تعرف الطفل العراقي والعربي بوقائع وشخصيات من تاريخنا العربي والقومي بأسلوب قصصي مشوق وإحياء التاريخ العربي والإسلامي "، والحقيقة أن إصدارات هذه السلسلة لم تكن كلها قصصاً، بل كان بعضها على أنماط كتابية أخرى. وبين يدي الباحثة ثمانية عشر إصداراً، يمكننا بعد قراءتها، تصنيفها الى الآتي:

1- القصص: ونقصد بها النصوص القصصية المتكاملة، التي تتميز بوجود البطل، وشخصيات ثانوية غالباً، وبحبكة واضحة، وأحداث متتالية، وقد يكون هناك صراع ما، يمثل عقدة، وتكون النهاية بمثابة حل لها، وهذه القصص تستقي من احداث وحقائق التاريخ مادتها العلمية، لكنها تعيد صياغتها بشكل جديد، وقد يكون خيالياً أحياناً، ومن هذه القصص: "درهم الخال عماره" لفواز الشعار، و"بطل تحت الماء" لعبد الخالق ثروت، و"حكاية من بابل" لجعفر صادق محمد.

وهناك قصص هي أشبه بالسير الغيرية أو ما يمكن تسميته ب"سير الاعلام"، تتضمن الواحدة منها مجموعة مواقف وأخبار من حياة الشخصية، وقد تحكي سيرة الشخصية منذ ولادتها وحتى وفاتها، مثل قصة "سميراميس" لعبد التواب يوسف، التي تروي قصة سميراميس مطولة في اثني عشر فصلاً وما يقرب الأربعين صفحة.

وكذلك سيرة "اسامة بن منقذ" وهي مجموعة من الاخبار المنقولة من كتاب "الاعتبار" الذي ألَّفهُ أسامة بن منقذ بنفسه، مع إعادة صياغتها وإضافة بعض المعلومات إليها. وتروي قصة " ابن بطوطة" حكايات أسفاره ومشاهداته في البلدان، معتمدة على ما دونه في كتابه "تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار".

2- سرد تاريخي في قالب قصصي: ونقصد به تلك النصوص التي تكون غاياتها معرفية وتقوم على سرد عدد كبير من الحقائق والمعلومات، متخذة الشكل القصصي وسيلة لإيصال معلوماتها، ويشير بعض الباحثين الى عدم اعتماد هذا النوع من النصوص قصصاً (محمد، 2004م، 66)، إذ أن حجم الحقائق فيها يطغى على أحداثها التي تتميز بقلتها وضآلة أو عدم نموها، وتعتمد كثيراً على الحوار، كما في قصة "ابن البيطار"، إذ تفترض القصة –خياليا- قدوم ابن البيطار الى عصرنا لمناقشة ثلاثة كتب علمية ألفها في علوم الأعشاب والنبات والصيدلة، لينال بها شهادة الدكتوراه!، والقصة قائمة على الحوار ، وقد يطول فيها الحديث الواحد أحيانا حتى يصل الى صفحة كاملة، من السرد التقريري، التاريخي والعلمي المطول.

ونرى الفكرة نفسها في قصة الخازن إذ يعرض العالم العربي عبد الرحمن بن المنصور الخازن إنجازاته العلمية على شكل حوارات بينه وبين حضور ندوة علمية ويناقشه الحضور فيها وفي أوليته في معرفتها، وفي القصة كثير من المصطلحات العلمية والفيزيائية التي أضفت عليها شيئاً من التعقيد والجمود.

وتحكي قصة "بابل" في مقدمتها عن حدث غريب ومشوق يقع لفتى من الزمن المعاصر، إذ يقول: "قبل أيام وصلتني رسالة غريبة.. مكتوبة على لوح من الطين"، وبالخط المسماري!، ويفسرها له أحد المختصين بأنها دعوة من صديق بابلي لزيارته والاطلاع على حضارة بابل، وهناك في بابل حيث يلتقي الفتى بصديقه البابلي (شار)، يكون زمن القصة قد تحول الى تلك العصور القديمة بكل مظاهرها، فيتجول الصديقان ويشاهدان البيوت والمحلات والأسواق والمكتبة والمعبد ومعالم أخرى كثيرة، ويتحدث الفتى البابلي عن تاريخ مدينته ومعالمها، وعن الناس وطرق معيشتهم واساليب حياتهم، على شكل معلومات وحقائق تاريخية.

وبغض النظر عن احتساب هذا النوع قصة أم غير ذلك، فإن الباحثة ترى أن هذا النمط الكتابي الواقع بين القصة والسرد التاريخي، يفتقر إلى عنصر من أهم العناصر الجاذبة للأطفال ألا وهو عنصر "التشويق"، ذلك أن " التشويق يتطلب قبل كل شيء حركة واضحة وحدثاً متوتراً وحبكة متماسكة.. ونمواً متصاعداً للأحداث على نحو يبقي الطفل في القصة، بل يدفعه لمعايشة أحداثها والتعاطف مع هذه الشخصية وادانة تلك" (محمد، 2004م، 82).

3- سرد تاريخي: ونقصد به سرد موضوع تاريخي بلغة موضوعية علمية، وهو أشبه ما يكون بدروس التاريخ المدرسية، ويتناول في الغالب "تاريخ تطور الأشياء"، متتبعاً تطور صناعة شيء ما عبر العصور، مثل "الفسيفساء"، وهي رحلة عبر التاريخ تتحدث عن تاريخ هذا الفن وتطوره، ومثلها "الرايات" التي تتبع تاريخ صناعة الرايات وخاماتها وألوانها ورمزياتها منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث، و"أجمل الاختام" تحكي عن استعمالات الاختام في العصور القديمة واهميتها في توقيع العقود والأملاك، وتطورها من الاختام الاسطوانية الى الاختام المنبسطة، وهي ذات الفكرة التي نستعملها في وقتنا الحالي.

4- القصص المصورة: وقد صدر منها ضمن السلسلة التاريخية عناوين عدة منها: "القعقاع" و"أسد البحار" وتحكي قصة مغامرة بحرية للملاح والجغرافي العربي احمد بن ماجد مع والده.

وهناك قصص تاريخية أخرى منشورة ضمن "السلسلة القصصية"، وقد يكون السبب وراء عدم نشرها ضمن "السلسلة التاريخية" هو عدم استنادها الى الحقيقة والواقعة الحادثة، فمثلاً قصة "الثور المجنح" لجمعه كنجي، تستعين بالعجائبية في تفسير فكرة التمثال الأثري " الثور المجنح"، وتفترض أن ثوراً- وبينما هو يرعى- تخطر في باله فكرة غريبة: "تمنى أن يكون ذكياً كالإنسان، سريعاً كالطير، قوياً كالأسد"، وظلت هذه الفكرة تشغل باله، حتى يلتقي رجلاً فيسأله عن إمكانية تحقيقها، فيجيبه بأن ذلك مستحيل، فيحزن الثور ويمضي في طريقه، ثم تخطر على بال الرجل فكرة " يا صديقي الثور. قف ! قف. لقد وجدتُ الحلَّ... جارنا نحّات، وبإمكانه أن ينحت لك كل ما تريد من الحجر!".

وعلى الرغم مما تتسم به هذه القصة من بساطة ألفاظها وتراكيبها، وفكرتها التي تبدو واضحة لأول وهلة، فإن الباحثة ترى أن للقصة مقصداً أبعد من الإمتاع، وهو تقديم قيمة "الخلود"، بشكل رمزي، ولعلها تشير الى أن الخلود يبدأ بفكرة عظيمة- قد تكون خارجة عن الواقع المألوف- يتبعها عمل متقن، وإن كنا قد أصبنا في ذلك، فيمكننا القول أن وصول هذه الفكرة الى ذهن الطفل قد يكون صعباً أو متعذراً.

ونُشر ضمن السلسلة القصصية: قصة "هولاكو والاسرى الأربعة"، وهي قصة خيالية تستند الى حقيقة تاريخية وهي غزو التتار بقيادة هولاكو للعراق لكنها لا تلتزم بها، وهي محملة بالكثير من الأفكار البسيطة والمعاني الرمزية أحياناً، وتصب جميعها في هدف واحد هو رفع الروح المعنوية والوطنية، لا سيما في تلك الفترة التي شهدت حرباً امتدت لسنوات. وإن كانت الأسباب التي تؤدي الى الحروب معقدة ومتداخلة وصعبة الفهم، فإن القصة تحاول تقديم السبب الى الطفل بشكل عفوي بسيط، فعدوان التتار وسبب هجوم هولاكو على العراق كان لأنه امتلأ حقداً وغيظاً، حين سمع الطيور وهي تغني:

هو العراق لمن أراد سعادة *** هو العراق لمن أراد جمالاً...

وتسعى القصة لرفع الروح المعنوية لدى الشعب القابع تحت الحرب والآمها، بعرض قصة الاسرى الأربعة الذين يمثلون بعض مكوناته: شيخ وتاجر وطفل وفتاة، ومواقفهم من هولاكو الذي يحاول إرهابهم وإذلالهم ليدينوا له بالولاء، وفي القصة متسع للدراسة والنقد، لكننا سنكتفي بهذا العرض، لعدم استناد القصة الى واقعة تاريخية حقيقية.

و(تبسيط التراث) من المنجزات المهمة التي تحتسب لدار ثقافة الأطفال في تلك المرحلة، فقد قامت الدار بإصدار بعض القصص التراثية وصياغتها بأسلوب مبسط، مثل: "حكايات عربية"، وهي مجموعة قصصية صغيرة تضم قصصاً من التراث العربي والاسلامي تتناول قيماً أخلاقية هي الحلم والوفاء والعدالة والأمانة، وقدمت سلسلة "كتاب التراث الذهبي" الشهير من كتب التراث، والموروث الأدبي والقصصي القديم، بعد إعدادها إعداداً مناسباً لا يضر بمفهومها ولا بأسلوبها الأصيل، مثل "من حكايات البخلاء"، و"عدل القضاة "، و"آشور أفق السماء"، و"ملحمة جلجامش".

وكنا قد أشرنا- سابقاً- الى دور القطاع الخاص، والجهود الفردية في إثراء تلك المرحلة بالنتاج القصصي والإبداعي المقدم للطفل، ولعل أهم الإنجازات الفردية في هذا المجال: صدور الروايات التاريخية الموجهة للفتيان، مثل: "البطل الصغير" لمحمد شمسي، وهي مستوحاة من سيرة عنترة بما فيها من حقيقي ومتخيل شعبي" (كاظم، 2014م، 205).

وشهدت الصحافة الموجهة للطفل والمتمثلة بالمطبوعين: مجلتي والمزمار، تقدماً لا مثيل له، فالثراء والتنوع الثقافي الكبير، والرسوم والإخراج الفني والطباعي المبهر، تؤكد –مع ما سبق- على أن هذه الحقبة هي الأكثر تميزاً وثراءً في مسيرة أدب الأطفال في العراق.

وإن كنا قد تحدثنا سلفاً عن المضامين التاريخية المنشورة بشكل مستقل في سلاسل "مكتبة الطفل"، فإن علينا أن لا نغفل دور الصحافة، بل نسعى بجهدنا للكشف عن حقيقة مكانته، متسائلين: هل أدت صحافة الطفل في تلك المرحلة دوراً جليلاً في خدمة القصة التاريخية، يستحق الذكر والإشادة؟

وللإجابة فقد قمنا بتحليل المضامين التاريخية المنشورة في مجموعة من الأعداد الصادرة من المطبوعين، ويمكننا ردها الى عدة تصنيفات منها: سير الأعلام: وتضم سيراً لشخصيات عظيمة من التراث العربي والإسلامي، جاء بعضها في أبواب ثابتة، مثل باب: "هوية بطل عربي"، وتسرد بعض المواقف والانتصارات لأبطال عرب عرفوا بفروسيتهم وشجاعتهم، ونجد سيراً لبطلات عربيات كذلك، ونلحظ تحقيقات صحفية تتناول تاريخ الاشياء وتطورها عبر الزمن، وقد تتناول تاريخ مدينة او معلم تاريخي ما. ومضامين هذه الاصناف لا تنتمي الى مجال القصة لأنها كتبت بأساليب تقريرية، تلتزم بنقل الوقائع والحوادث التاريخية، وهدفها إيصال المعرفة بأسلوب صحفي بعيد عن المجال الأدبي.

أما نسبة الحضور القصصي فقد وثبت بشكل لم يسبق له مثيل، فبعد أن شكلت في السبعينيات نسبة لا تتعدى 6 %، وصلت نسبة القصص في الثمانينيات الى 40% تقريبا من نسبة المضامين التاريخية كافة، وهذا الاهتمام غير المسبوق –بحد ذاته – يشير الى الوعي الكبير بأهمية القصة التاريخية، وأثرها في ربط الطفل بتراث أمته، وتنمية ثقته به، ومن ثم التضحية لأجله.

وحضور القصة التاريخية كان متضمناً –غالبا- في أبواب ثابتة، فنجد أن "مجلتي" خصصت باباً أطلقت عليه اسم "حكايات جدو"، يتضمن قصصاً وأخباراً عن حوادث ووقائع تاريخية تتناول موضوعات الحروب والمعارك والشهادة والتضحية في سبيل الوطن، وتحكي عن بطولات القادة العرب والمسلمين، ودماثة اخلاقهم في تعاملهم مع جنودهم وخصومهم، ويبدو –جلياً- أن هدفها تعزيز الوعي القومي، وتنمية الإحساس بالانتماء، حتى يستشعر الفرد أنه جزءٌ من أمة تدافع عن كيانها، لا سيما في تلك الحقبة التي شهدت حرباً امتدت زمناً طويلاً.

ولأن هذه القصص موجهة لأطفال دون الثانية عشرة، فإننا سنجد لغة سردية واضحة يسيرة، وحدثاً بسيطاً تقوم عليه القصة، والقصة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر، لا تُعنى برسم شخصية، ولا تذكر تفاصيلاً تاريخية

كثيرة، ولا تسهب في وصف، بل تنقل لنا وقائع وحوادث تاريخية، مركزة على بعض البطولات، كبطولات سعد بن ابي وقاص، والقعقاع، وعامر بن الجراح وخالد بن الوليد، وعلى بعض المعارك، واهمها معركة "القادسية".

ونجد أن نوعاً قصصياً جديداً قد برز في أواخر الثمانينيات وترسخ وشاع في التسعينيات وهو "القصص التاريخي الديني"، فقد خصصت "المزمار" عموداً في أحدى صفحاتها لهذا النوع القصصي، تولى عدد من الكتاب النشر فيه، ويحكي قصصاً ومواقف من السيرة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين، والصحابة، تهتم بإبراز القيم الإيمانية والإسلامية، كالإخلاص والتضحية في سبيل الله، والعدل، والورع، ورعاية المحتاجين وتفقد أحوال الرعية، وأغلبها منقول من كتب التاريخ والسير القديمة، وقد يتدخل الكاتب في تبسيط السرد والحوار، واستبدال بعض الألفاظ والتعبيرات بأخرى أيسر فهماً.

وتولت "المزمار" –كذلك- نشر بعض الأخبار التاريخية التي تحكي قصص الأمثال وأصولها في باب صغير بإسم "مثل وحكاية"، استمدت مادته من الكتب القديمة كأمثال العرب للمفضل الظبي، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، مع إخضاعها للتبسيط بالحذف والاستبدال وإعادة الصياغة أحياناً.

ويبدو أن الجهد المبذول في كلا المطبوعين، لم يتعدَ –إلا استثناءً- إعادة الصياغة للأخبار والمرويات الواردة في كتب التاريخ والسير العربية القديمة، مع التقيد بروايتها، وعدم الحياد عنها. ويتمثل هذا الجهد أحياناً بوضع بعض النبذ والمعلومات التاريخية في قالب قصصي.

وطريقة التناول هذه دفعت بعض النقاد إلى استعمال مصطلح "قصة الخيال التاريخي" في توصيف القصة التاريخية، فالهيتي –مثلا- يرى أن الهدف من القصة ليس تسجيل الواقع ونقل الحقائق بل مساعدة الأطفال على تخيل الماضي، والاحساس بأحزان وأفراح الأجيال التي سبقتهم، وإدراك أوجه الصراع بين البشر، حتى تتهيأ لهم فرص الخوض في غمار الحياة الإنسانية مع إدراكهم لموقعهم في مسيرة الزمن (الهيتي، 1988م، ص185).

وترى الباحثة أن الطبيعة الصحفية التي تميل الى الاختصار، والمباشرة، تقيد كاتب قصة الطفل، وتحول دون تحقيق حريته في رسم تفصيلات قصته وشخصياتها والكشف عن افكارها وخواطرها، ولعله يكون أحد العوامل التي صنعت فرقاً نوعياً واضحاً بين القصة الصحفية والقصة المنشورة بشكل مستقل.

واستكمالاً لما سبق، سنتناول في الصفحات الآتية انموذجا قصصيا منشوراً ضمن السلسلة التاريخية، لنقوم بدراسته والاطلاع على خصائصه، واسلوب كتابته.

اختارت الباحثة نصا قصصيا تحت عنوان "بطل تحت الماء" وهي من تأليف عبد الخالق ثروت، وتحكي قصة "عيسى العوام" التي أورد خبرها –في الأصل- القاضي بهاء الدين بن شداد في كتابه "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، وكان ابن شداد قد عاصر السلطان صلاح الدين الأيوبي "فدعاه إليه، وولاه قضاء العسكر وبيت المقدس... واستصحبه معه في بعض غزواته، فدّون وقائعه وكثيراً من أخباره".(3)

وعيسى العوام كان عواماً مسلماً يدخل عكا- أيام حصار الصليبين لها- ليلاً على حين غرة من العدو، حاملاً كتب صلاح الدين ونفقات الجند المسلمين على وسطه، ولكي يصل الى عكا، كان عليه أن يقوم بمهمة شاقة وخطرة، وهي أن يغوص في الماء حتى يتعدى مراكب العدو وسفنه، فإذا ما وصل عكا، أطلقوا الطيور اشارة لوصوله، وفي إحدى مهماته جرى عليه ما أهلكه، واستبطأ الناس قدومه، وطال انتظارهم، حتى قذفه البحر إليهم- بعد أيام- وهو ميت، وعلى وسطه الذهب والكتب.

والقصة الأصلية- والتي قد يصح نعتها بالخبر التاريخي- جارية على أسلوب الأخبار المعروف والمتبع في كتب التاريخ والسير العربية القديمة- ذات الفاظ واضحة ولغة يسيرة، وهي قصيرة لا تتجاوز بضعة اسطر، تتسم بالاختصار والأقتصار على مضمون القصة، وقد تكون السمة هذه هي نقطة البدء في إعادة صياغتها لتكون مناسبة

للأطفال، "ذلك أن أسلوب الكتابة، لا سيما القصصية والروائية، الموجهة للطفل والمراهق، يجب أن تنطوي على التفصيلية، لكن بدرجة معقولة وملبية لتساؤلاته ولما قد يشكل فهمه أو التأثر به دونها" (كاظم، 2014م، 30).

ونحن حين نقرأ نص القصة الموجهة للطفل، ونحاول المقارنة بينه وبين النص الأصلي، فإننا سنجد أنفسنا بإزاء بناء فني جديد لا يعتمد على القصة الأصلية إلا في استمداد الحقيقة التاريخية، مستعيناً بخيال المؤلف في ملء الفجوات التاريخية، والكشف عن الخبايا النفسية.

ويبدأ الكاتب قصته بجملة فعلية "شعر عيسى أنه يكاد يختنق" ! وتتعاضد هذه المقدمة مع العنوان "بطل تحت الماء" في صناعة عتبة نصية مشوقة للقصة، والبداية المشحونة بالإثارة "تشد الطفل وتثير اهتمامه، وتحرك انفعالاته وتربطه حتى ينتهي منها" (الهيتي، 1977م، ص145)، والقصة بصوت راوٍ عليم، يتولى مهمة سرد القصة، وبيان الظرف التاريخي الذي أحاط بها، وهي تروى بضمير الغائب (هو/ هم) حتى في حال الكشف عن بواطن الشخصية وتجسيد حالاتها النفسية والشعورية، والحدث لا ينمو بوتيرة واحدة بل يتصاعد حتى يصل الى الذروة، حين يرفع البطل رأسه فيجد نفسه تحت أعين جنود الأعداء، وهذا الحدث متخيل، صنعه خيال الكاتب لإضفاء التشويق على القصة.

وتروم القصة –ضمنياً- إيصال قيمة إيمانية- وطنية، وهي التضحية النابعة من الإيمان بالله، ثم الإيمان بقضية عادلة، تجعل الفرد يبذل حياته لأجلها ولأجل أهله وشعبه ووطنه، يتجلى ذلك في قوله: "عملية شاقة وخطرة... لكنه تعود عليها... إنه يتحمل الصعاب ويتعرض للخطر من أجل آلاف الأطفال والنساء والشيوخ من سكان مدينة عكا..".

وتهتم قصص الأطفال بإبراز "البطل"، وتحديد صفات البطولة فيه، فهو الذي يتحدى الصعاب والأخطار ويقارع الشر والأشرار في سبيل إيمانه بقضية ما. وعلى الرغم من أن قصص الأطفال تنقل الحياة بحلوها ومرها، فإن أفعال البطل يجب أن تؤدي الى شيء مثالي (الفيصل، 1998م، ص57)، ولكن هذا لا يعني –بالضرورة- أن يكون البطل مثاليا.

وهذا ما يكشفه لنا راوي القصة حين يحدثنا عن الخواطر التي جالت في ذهن البطل وهو يكابد المشاق في سبيل إتمام مهمته الصعبة، وترى الباحثة أن للكشف عن خواطر البطل أهمية كبيرة، فهو يميل إلى تحقيق التعاطف الوجداني لدى القارئ الصغير، فيرى البطل إنساناً حياً تتجسد فيه المشاعر الإنسانية من خوف وقلق – أحياناً- بقدر ما تتجسد فيه البطولة الخارجية، مما يعين على ردم هوة المثالية، وتقريب المسافة بين البطل والطفل.

ومن الأمثلة على ذلك قول الراوي: "وتشابكت الأفكار في ذهنه واختلطت بين حياته وموته... إنه لا يمكن أن يسمح لهم أن يأسروه، فماذا يفعل إذن؟ إنهم يحاصرونه ولو استمر في الغوص فإنه قد يموت اختناقاً.. ترى ما الذي يحدث له إن مات اختناقا؟ ".

ويكشف لنا الراوي عن مشاعر إنسانية أخرى، إذ يقول: " إنه يحب هذا الحمام حباً من نوع خاص.. إنه دليل أمانته ودليل براءته.. ودليل شجاعته أيضاً..".

وتبدو نهاية القصة –لا سيما إذا ما أحب الطفل بطلها وتعلق به- مؤلمة جداً، لكنها –في الوقت نفسه- ليست مفاجئة، إذ أن الكاتب كان يبذل مجهوداً في تخفيف وقع الصدمة عن طريق التدرج في عرض الأحداث، وجعل خيوطها بيد الطفل ليكتشف النهاية بنفسه، ولكن –دوماً- ثمة خيط من الأمل يتشبث به القارئ في محاولة لتجاوز صدمة وفاة شخص أحبه أو أعجب به، لا سيما إذا ما كان طفلاً صغيراً.

ولعل تساؤلاً يدور في أذهاننا حول إمكانية تعريض الأطفال للحقائق الأليمة وتصويرها لهم، والحقيقة أنه ليس ثمة جواب حاسم ونهائي، ولعل ذلك عائد إلى تفاوت الأطفال في مراحل الطفولة في إدراك هذه المفاهيم، واختلاف أساليب التربية بين المجتمعات.

ويورد بيتر هانت في كتابة (مقدمة في أدب الطفل) إجابة عن تساؤلنا تبدو وافية ومقنعة، يوردها نقلا عن إدوارد آرديزون (1)، إذ يقول:

" اعتقد أنه من المحتمل أننا نميل في قراءة الطفل، أن نقيه أكثر من اللازم من وقائع الحياة القاسية مثل الأسى والفشل والفقر وربما حتى الموت، أما إذا عولجت هذه الموضوعات بشكل شاعري يمكننا بالتأكيد تقديمها له دون ألم...أما إذا لم تحتو هذه الكتب على أية لمحة من قسوة العالم فلست على ثقة من كوننا نعمل بشكل منصف وأمين" (هانت، 2009م، ص28- 29).

وبعد استعراضنا لكل هذا الجهد نستطيع القول: إن العقد الثمانيني يعد –بحق- فترة ذهبية في مسيرة أدب الأطفال في العراق، ليس على مستوى الكم فحسب، بل على مستوى النوع ايضا، الامر الذي يشير إلى إدراك لحاجات الطفل، ووعي بطبيعة نفسيته وفقاً لمرحلته العمرية.

المصادر والمراجع

- طاهر، طاهرة داخل، قصة الطفل في العراق: النشأة والتطور، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 2004م.
- الفيصل، سمر روحي، أدب الأطفال وثقافتهم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998م.
- كاظم، نجم عبد الله، رواية الفتيان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014م.
- محمد، جعفر صادق، قصص الأطفال في العراق 1969- 1979م: اشكاليات البداية ووعي المستقبل، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 2004م.
- هانت، بيتر، مقدمة في أدب الطفل، ترجمة: ايزابيل كمال، المركز القومي للترجمة، مصر، 2009 م.
- الهيتي، هادي نعمان، أدب الأطفال: فلسفته، فنونه، وسائطه، منشورات وزارة الإعلام، العراق،1977م.
- الهيتي، هادي نعمان، ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة 123، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1988 م.